



الذي لا شك فيه، وإن شك أبواق النظام السوري، هو أن الثورة السورية قد بدأت سلمية تطالب بالإصلاح، وكان بوسع بشار الاستجابة لمطالبتها بحكمة وذكاء، لكن إحساسه الطائفي (هاجس تعبيره عن أقلية) وغطرسته الطاغية وثقته بقدراته الأمنية، وربما إحساسه بأن 40 سنة قد طوّعت الشعب السوري على قبول الواقع القائم، كل ذلك لم يمنّه فرصة التفكير السوي، فانقضى على المطالبين بالإصلاح وأمعن فيهم قتلاً وإذلاً.

بعد الجولة الأولى من الاحتجاجات، ومع ملامح اتساعها بمرور الوقت أخذ النظام قراراً واضحاً بعسكرة الثورة السورية على أمل أن يؤدي ذلك إلى تسهيل السيطرة عليها عبر وصفها بأنها تمرد مسلح يقوده إرهابيون. ويبدو أن هناك من همس في أذنه بأن حساسية الولايات المتحدة والغرب حيال حكاية القاعدة ستمنّه فرصة التعامل مع الأوضاع بحرية مطلقة.

ما نحن متأكدون منه بسبب معرفتنا بالطاقة الأمنية للنظام هو أن الموجة الأولى من العمليات التفجيرية بمختلف تجلياتها كانت نتاج اختراف في مجموعات مسلحة ذات نهج سلفي جهادي كانت للنظام خبرته في التعامل معها منذ أيام العراق، يوم كانت المفخخات تنطلق من حلب باتجاه الأراضي العراقية (كثير من أولئك اعتقلوا أو جرت تصفيتهم مثل محمود قولا

غاصي - أبو القعاعـ، وبعدهم سلم للأميركان بعد ضغوط مشددة على النظام في مراحل متعددة ) ، وهو ما سبق أن تحدث عنه نوري المالكي مرارا وتكلرا ودخل بسببه في حرب معلنة مع النظام السوري قبل أن تهدأ العلاقة إثر دعم بشار لترشيحه رئيسا للوزراء بوساطة إيرانية.

وقد تحدث عن هذا البعد أيضا بقدر من التفصيل سفير بشار في العراق (نوف الفارس) الذي انشق عن النظام قبل أسبوع، مع تحفظنا على طريقة عرضه للقضية.

وإذا سأل البعض عن الأهداف الكامنة خلف التحالف المؤقت الذي نشأ بين النظام السوري ومجموعات القاعدة في العراق، فإن المؤكد أنه لم يكن يريد من ورائها استهداف فئة بعينها، وكانت شيعية أم سنية (المفخخات أصابت من السنة، خاصة المنخرطين في العملية السياسية الكثير، وربما أكثر من الشيعة أنفسهم لو استثنينا موجة التفجيرات في الأعوام الثلاثة الأخيرة).

ما كان يريد النظام هو إفشال مشروع الغزو الأميركي للعراق، وهذه كانت من إيجابياته دون شك، لكن هاجسها كان البحث عن مصلحة النظام الذي كان يدرك أن نجاح ذلك المشروع كان يعني الاستدارة نحوه بعد ذلك مباشرة، كجزء أولى من الترتيبات التالية لصالح الكيان الصهيوني الذي وقف خلف الغزو، بل دفع بوش نحوه بوضوح من أجل إعادة تشكيل المنطقة برمتها لحساب المشروع الصهيوني (دراسة هارفارد الشهيرة لستيفن والت وجون ميرشايمير أكدت ذلك، والتي تحولت لكتاب بعنوان "اللوي الإسرائيلي والسياسة الأميركيـة الخارجية").

إيران بدورها لم تكن بعيدة عن تشجيع المجموعات التي تطلق النار على الأميركيـان، وكانت من القاعدة أم سواها، في الوقت نفسه كانت تستهدف رموز السنة وعلماءـهم وعسكريـهم في سياق من إضعافـهم تمـهـيـداً للمرحلة التالية، في لـعـبـةـ بالـغـةـ الـذـكـاءـ، وربما الـانتـهـازـيةـ بـتـعبـيرـ أـدـقـ.

والحال أن إنكار دور القاعدة وإلى جانبها قوى المقاومة العراقية في إفشال مشروع الغزو لا ينكره سوى جـاحـدـ، وـحتـىـ لوـ قـيـلـ إنـ ذـلـكـ قدـ صـبـ فيـ صالحـ إـيرـانـ وـالـقـوـىـ التـابـعـةـ لـهـ،ـ التـيـ سـيـطـرـتـ عـلـىـ العـرـاقـ (ـ مـعـ أـنـ ذـلـكـ لمـ يـكـنـ قـدـرـاـ لـوـ أـدـيرـتـ الـعـلـمـيـةـ بـطـرـيـقـ مـخـلـفـةـ)،ـ حتـىـ لوـ قـيـلـ ذـلـكـ،ـ فإنـ مـشـرـعـ الغـزوـ الـأـمـيرـكـيـ لـلـعـرـاقـ بـحـسـبـ ماـ كـانـ مـخـطـطاـ فـيـ الدـوـائـرـ الـأـمـيرـكـيـةـ وـالـصـهـيـونـيـةـ كـانـ أـخـطـرـ عـلـىـ الـأـمـةـ بـكـثـيرـ مـنـ الـخـطـرـ إـلـيـانـيـ الـذـيـ يـتـرـنـحـ الـيـوـمـ فـيـ اـنـتـظـارـ سـقـوـطـ بـشـارـ الـأـسـدـ.

ولو نجح مشروع الغزو لكان مشهد المنطقة اليوم مختلفا ، ليس على الصعيد السياسي فقط ، بل الثقافي والديني وربما الجغرافي أيضا ، حيث كانت ساينس بيكو الجديدة جـزـءـاـ مـنـ أـفـكارـهـ.

من هنا لا يمكن الحديث عن ظاهرة الجهاد التي نشأت في العراق بلغة العمالة، لأن عاقلا لا يمكنه اتهام القاعدة بالعمالة لإيران أو النظام السوري، بقدر ما كانت تنسجم مع برنامـجـهاـ فيـ استـهـادـ "ـالـعـدـوـ الـبعـيدـ"ـ مـمـثـلـاـ فـيـ الـلـوـلـاـتـ الـمـتـحـدـةـ،ـ بـصـرـفـ الـنـظـرـ عـنـ مـسـلـسـلـ الـأـخـطـاءـ الـذـيـ شـابـ عـمـلـهـ بـعـدـ ذـلـكـ وـأـدـىـ إـلـىـ نـشـوـءـ الـصـحـوـاتـ وـضـرـبـ الـمـقاـوـمـةـ وـإـفـسـاحـ الـمـجـالـ لـهـيـمـةـ الـقـوـىـ الـشـيـعـيـةـ عـلـىـ الـعـرـاقـ.

وهي في السياق المذكور لم تجد بـأـسـاـ فيـ تـقـبـلـ أيـ شـكـلـ مـنـ أـشـكـالـ الدـعـمـ مـنـ أـيـةـ جـهـةـ كـانـتـ ماـ دـامـ يـخـدـمـ بـرـنـامـجـهـ،ـ بـدـلـيلـ انـقـلـابـ خـطـابـهاـ بـوـضـوحـ ضـدـ إـيرـانـ وـحـلـفـائـهاـ بـعـدـ ذـلـكـ (ـ كـانـ وـجـودـ عـنـاـصـرـ وـقـادـةـ مـنـ الـقـاعـدـةـ فـيـ إـيرـانـ فـيـماـ يـشـبـهـ الـإـقـامـةـ الـجـبـرـيـةـ مـنـ هـرـوـبـهـ مـنـ أـفـغـانـسـتـانـ سـبـبـاـ مـنـ أـسـبـابـ التـهـدـيـةـ).

عندما استدرج النظام الثورة السورية نحو العسكرية لم يحقق نجاحـاتـ تـذـكـرـ فـيـ الـعـامـ الـأـوـلـ،ـ لـكـنـ الـأـمـرـ مـاـ لـبـثـ أـنـ انـقـلـبـ بعدـ ذـلـكـ،ـ لـيـسـ عـبـرـ عـنـاـصـرـ الـقـاعـدـةـ،ـ بلـ عـبـرـ الشـبـابـ السـوـرـيـينـ أـنـفـسـهـمـ،ـ خـاصـةـ الـمـنـشـقـينـ عـنـ الـجـيـشـ.

هـنـاـ،ـ وـمـعـ تـحـولـ الـثـورـةـ تـدـرـيجـياـ نحوـ الـعـسـكـرـةـ بـدـأـ تـدـفـقـ الشـبـابـ إـلـاسـلـامـيـينـ مـنـ الـخـارـجـ،ـ وـكـثـيرـ مـنـهـمـ جـاؤـواـ فـرـادـيـ وـلـمـ يـكـوـنـواـ عـلـىـ صـلـةـ بـالـقـاعـدـةـ،ـ لـكـنـ عـنـانـ الـعـسـكـرـةـ بـقـيـ سـوـرـيـاـ بـاـمـتـيـازـ،ـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـمـكـنـ القـوـلـ إـنـ مـاـ زـالـ قـائـمـاـ إـلـىـ الـآنـ،ـ لـأـنـ نـسـبـةـ

المقاتلين القادمين من الخارج لا تصل إلى 5% من مجموع المقاتلين، وإن كانت بعضهم خبرات قتالية متميزة كما هو حال الليبيين الذي يتزعمهم مهدي الحاراتي صاحب الدور الكبير في ثورة ليبيا.

اليوم يمكن القول إن لهؤلاء أدواراً مهمة ومؤثرة، لا سيما أنهم لم يتورطوا باستثناء حالات محدودة في نهج العمليات الانتحارية التي تصيب مدنيين حتى لو استهدف مراكز أمنية. وظاهرتهم هنا أقرب إلى النموذج الأفغاني منها إلى النموذج العراقي، ولعلها تشبه تدفق الشبان للمشاركة في القتال ضد القوات الأمريكية قبل غزو العراق، مع الفارق بالطبع.

المشكلة الآن تتعلق بدورهم في عملية التحرير وضرورة ألا يلجم بعضهم إلى خطاب أو ممارسة تتطوّي على تشكيل إمارات أو فرض نهج معين يدخلهم في إشكالات مع السوريين. أما الأهم فيتمثل في إدراكم لحقيقة الثورة وأنها تريد الحرية والتعديدية وليس انقلاباً عسكرياً يمكن لجهة معينة أن تقطف ثماره.

ما نسمعه من مصادر موثوقة أن الذين تصدر منهم بعض تلك الممارسات هم قلة، بينما يساهم الآخرون إيجابياً في المعركة، وهم لن يفرضوا بعد التحرير على السوريين ما لا يريدون، ومثل هذا الأمر له صلة بالجهات التي تمولهم أو توجههم، والتي يأمل المخلصون أن تكون واعية لطبيعة الثورة ومرحلة الربيع العربي التي جاءت في سياقها. ونرجح أنها كذلك.

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: